رواية "سيدات زحل" للروائية لطفية الدليمي
دراسة سوسيو-تاريخية

د.نوزاد أحمد أسود
كلية العلوم الانسانية – جامعة السليمانية

مقدمة:

ما الرواية؟ سؤال قد يتبادر الى الذهن في كل دراسة تتناول جوانب من الرواية، لكن من الصعب تحديد تعريف معيَّن للرواية، ذلك "لعدم قابليتها للتحديد"[١]، فهي نوع غير ثابت ومتغير الشكل، والتعاريف الشائعة لهذا الجنس الادبي ضاربة في الاختلاف والتباين، لذلك "يجد دارس الرواية صعوبات جمة لوضع تعريف جامع مانع لهذا الجنس الادبي"[٢]، اذ ان ازدهار الرواية وتعدد انواعها واتساع أغراضها واختلاف أساليبها وسرعة تطورها واستيعابها لكثير من عناصر الفنون، جعل الوصول الى تعريف واحد جامع ودقيق في آن واحد أمرا صعبا [٣]، وقد أدى تنوع التعاريف واختلاطها وغموضها الى نزوع كثير من النقاد والباحثين الى القول بإستحالة تعريف الرواية وتحديد خصائصها الإجناسية عادين أن ضعف التعاريف السائدة إنما هو نتيجة طبيعية لتميز الرواية بإنفتاحها الدائم وقابليتها الشديدة للتغير. فمثلا استبعد الناقد الروسي ميخائيل باختين التوصل الى تعريف شامل للرواية، اذ إنها الجنس الادبي الوحيد الذي مازال مستمرا في التطور، ولم تكتمل كل ملامحه حتى الان [٤]، "لكنْ بإمكاننا القول بصورة عامة إن الرواية هي نص نثري تخيُلي سردي طويل، يشكل الحدث والشخصية والوصف والاكتشاف، عناصر مهمة فيه، تنكب دراسة الرواية على جملة من العناصر الاساسية التي تقوم عليها، وهي: اللغة والسرد والثيمة والشخصية والحدث والزمن والفضاء والبنية والتخيِّل"[٥]، وتصف شخصيات خيالية وأحداثا على شكل قصة متسلسلة، كما أنها أكبر الأجناس السردية من حيث عدد الصفحات وتعدد

١- بول آرون، معجم المصطلحات الادبية، ترجمة: د.محمد حمود، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٢، ص٥٥٠.

٢محمد القاضي واخرون، معجم السرديات، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، تونس وبيروت، ٢٠١٠، ص٢٠١.

٣- ينظر: د.لطيف زيتوني،معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون ودار النهار للنشر، بيروت، ٢٠٠٢، ص٩٨-٩٩.

٤- نقلا عن: محمد القاضي واخرون، معجم السرديات، ص٢٠٢.

٥د.لطيف زيتوني،معجم مصطلحات نقد الرواية ، ص٩٩.

الشخصيات وتنوع الأحداث، والرواية حكاية تعتمد السرد بما فيه من وصف وحوار وحدث وحبكة وصراع بين الشخصيات وزمان ومكان محددين[١].

يُعَدُّ الخيال المجال الحيوي في الرواية، وبهذا ينظر الى الرواية وسيلة لإرتقاء الخيال البشري، كذلك تصبح الرواية "خزانة الحكايات التي تحفظ المزايا المجتمعية والانثروبولوجية لكل جغرافية بشرية، ويمكن من خلالها الاطلالة على العادات والتقاليد وأنماط العيش وفنون الطبخ والازياء والملابس السائدة في كل عصر الى جانب كل التفاصيل الحياتية الاخرى الخاصة بالحب والزواج والصداقة والرفقة والسفر" [٢]، والرواية هي أحدى منتجات الحداثة والثورة الصناعية في القرن التاسع عشر وتوسّع المدن والثورات العلمية والتقنية منذ بدايات القرن العشرين، اذ ان "الرواية فن لم يكن ممكنا ظهوره دون ان تتطور الحياة المدنية (...) كانت ولادة الرواية مصحوبة بتحولات كبيرة على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وبطبيعة الحال على المستوى الثقافي الادبي، وكان العنوان الكبير لتلك التحولات هو تطور المدن والحياة المدنية"[٣]، ولعل اولى هذه الثورات هي الثورة في ميدان الفيزياء النيوتنية التقليدية التي قدحت زنادها النظرية النسبية لأنيشتاين التي أعادت تشكيل صورتنا المفاهيمية عن طبيعة الزمان والمكان، وكذلك انتشار السكك الحديدية والقطار على انه واحد من أهم وجوه الحداثة التي أسهمت في إعادة ترتيب المشهد الروائي، فضلا عن الثورة السايكولوجية والفلسفية التي كان لها ابلغ الاثر في تثوير المشروع الروائي وتحديثه.[٤]

من هذا المنطلق تُعد رواية "سيدات زحل" للروائية العراقية لطفية الدليمي نصاً سردياً مميزاً من حيث تقنياته السردية، وقد تندرج ضمن الروايات التي تطلق عليها (الرواية السوداء)*، لأنها تتصف معظم شخصياتها بالبعد والجفاء والمصائب والنكبات وأحداث تراجيدية وحتمية الموت.وان الروائية ركّزت فيها على الوصف الدقيق والتوثيقي للحالة الاجتماعية والقتل والذبح والتشرد التي سادت في العراق طوال قرون، بعد سنة ٢٠٠٣ في مدينة بغداد على نحو خاص، كما تصورها الرواية، وقد اخترنا هذه الرواية للدراسة والبحث لأهميتها الفنية ولتطرقها وولوجها في موضوع غاية في الحساسية، وهو أحداث العراق المأساوية فيالماضي والحاضر، والصراع الطائفي المؤلم الذي أدى الى تخريب الانسان والمجتمع والبلاد برمتها.

١- ينظر:د.لطيف زيتوني،معجم مصطلحات نقد الرواية ، ص٩٩. و كامل عويد العامري، معجم النقد الادبي، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ٢٠١٣، ص٣٥٦. و محمد محي الدين مينو، معجم النقد الادبي الحديث، دائرة الثقافة والاعلام- الشارقة، ٢٠١٢، ص١٥٠.

٢- جيسي ماتز، تطور الرواية الحديثة، ترجمة وتقديم: لطفية الدليمي، دار المدى، بغداد،٢٠١٦، ص٨.

٣- سعد البازعي، سرد المدن في الروايةوالسينما، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، بيروت والجزائر، ٢٠٠٩، ص٩.

٤للمزيد ينظر: جيسي ماتز، تطور الرواية الحديثة، ص١٥-٢٠

* سميت بالرواية السوداء لأن بطلها او بطلتها يواجه الكثير من الأهوال والشدائد، وتميزت من غيرها من الروايات بالمغامرات والظواهر الخارقة، وتقوم احداثها على الرعب والقتل والتعذيب والإنتحار، وتجري في أمكنة غريبة مظلمة..للمزيد ينظر: (محمد محي الدين مينو، معجم النقد الادبي الحديث، من إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة - دولة الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٢، ص١٥٥).

لقد اعتمدنا على المنهج السوسيو–تاريخي لقراءة هذه الرواية، ذلك لأن هذا المنهج "يدرس المادة التاريخية للوصول الى تعميمات سوسيولوجية، ويتضمن المدخل التاريخي محاولةالكشف عن النزعات العامة في تطور أو تغير المجتمعات أو الحضارات"[١]،والرواية هذه، هي التي أوقفتنا على اختيار هذا المنهج الذي يحيلنا، بدوره، الى تحليل النص وفق التحليل الاجتماعي والتاريخي للأدب، وهو محاولة لدراسة الرواية من وجهة النظر السوسيولوجي والتاريخي داخل ممارسة النقد الأدبي، وهذه الرواية التي درسناها، نص سردي زاخر بالوقائع والاحداث الحافلة بالصراع الاجتماعي والايديولوجي والسياسي في تاريخ العراق قديما وحديثا، اذ "بواسطة الرواية يدخل المجتمع في التاريخ ويدخل التاريخ في المجتمع" [٢] *.

نبذة عن رواية (سيدات زحل)

تتناول هذه الرواية أوجاع العراق في زمنين مختلفين، زمنالعهد العثماني وزمن سقوط بغداد سنة ٢٠٠٣، بوساطة سيرة الشخصية الرئيسة والمحورية للرواية وهي (حياة البابلي)، وهي سليلة أسرة بغدادية عريقة تمتد جذورها عميقا في تاريخ المدينة الاجتماعي والانساني، تعمل في الصحافة، لكننا ندرك منذ البداية انها تعاني تمخضات الحياة الجديدة بعد سقوط بغداد، وتعتريها صدمة تلو الاخرى من جراء الجرائم البشعة التي تصيب أهلها وذويها بأيدي المتشددين والظلاميين والعصابات المسلحة الملثمة والميليشيات الدينية المتزمتة والذباحين، ساردة تلك المصائب عبر تسعة فصول موزعة على كراسات عديدة يصل عددها الى ٣٥ كراسة، تضم خمسة وثلاثين مشهدا، وكل كراسة تحمل عنوانا فرعيا، فضلا عن ثلاثة مشاهد إستهلالية في الفصل الاول تحمل العناوين الاتية: (بغداد: نيسان ٢٠٠٨)، (هوامش في أوراق بغداد ٢٠٠٣–٢٠٠٦)، (بغداد ٢٠٠٦)، كتبت الكراسات من لدن حياة وشخصيات نسوية اخرى في الرواية وعمها الشيخ قيدار، في اوقات مختلفة، كراسات تتناول قصص الحب والموت والغياب والفقد والاغتصاب والاختطاف والإخصاء وبتر الاعضاء وقص الألسن.

تستهل الرواية بسؤال تطرحه بطلة الرواية على نفسها من هول الصدمات التي تتلقاها ومن كثرة الاقنعة التي تضطر الى تغييرها:

---

١ – محمد سعيد فرح ومصطفى خلف عبدالجواد، علم إجتماع الادب، دار المسير للنر والتوزيع والطباعة، عمان–الاردن، ٢٠٠٩، ص١٩.

٢– ميشيل زيرافا، الادب القصصي– الرواية واتلواقع الاجتماعي، ترجمة: سما داود، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٥، ص١٣.

* لطفية الدليمي، قاصة وروائية عراقية مقتدرة، ولدت في مدينة بغداد سنة ١٩٤٠، بدأت بكتابة القصص منذ النصف الثاني من ستينيات القرن العشرين، أصدرت حتى الان تسع مجاميع قصصية وهي كالآتي: ممر الى أحزان الرجال ١٩٧٠، البشارة ١٩٧٥، التمثال ١٩٧٧، اذا كنت تحب ١٩٨٠، عالم النساء الوحيدات– رواية وقصص ١٩٨٦، ما لم يقله الرواة ١٩٩٩، برتقال سمية ٢٠٠٢، موسيقى صوفية ٢٠٠٤، مسرات النساء ٢٠١٥. وأصدرت ثمان روايات: عالم النساء الوحيدات ١٩٨٦، بذور النار ١٩٨٨، من يرث الفردوس ١٩٨٧، خسوف برهان الكتبي ١٩٩٠، ضحكة اليورانيوم ٢٠٠٠، حديقة حياة ٢٠٠٤، سيدات زحل ٢٠٠٩، عشاق وفونوغراف وأزمنة ٢٠١٦. فضلا عن العديد من الترجمات و الدراسات والاعمال الدرامية.

"-أأنا حياة البابلي، أم انني اخرى؟؟ ومن تكون آسيا كنعان التي أحمل جواز سفرها؟"[1]، طارحة غموض شخصيتها التي لاتعرف من هي على وجه التحديد، لكننا نكتشف بعد قليل انها شخصية مثقفة تعمل في الصحافة، وان هناك شخصية رجل في حياة (حياة البابلي)، وهو (ناجي الحجالي) الرجل الذي أحبها بعمق، يحاول انقاذها من المصائب وإخراجها خارج العراق وهو يعيش في بلدان مختلفة، وصديق عمها الشيخ قيدار الذي يربطه علاقة وطيدة بحياة، أما عمها الشيخ قيدار فهو رئيس جمعية سرية تحاول انقاذ بغداد من الخراب وتشتري المخطوطات الثمينة وتخبئها بعيدا عن عيون الغوغاء ومشعلي الحروب، وتجمع التبرعات من الموسرين لإنجاز ابحاث عن مدينة بغداد وحفظ تراثها، بعد اختفاء الشيخ قيدار، تنتقل مسؤولية هذه الجمعية الى ابنة اخيه حياة البابلي لانها الاقرب الى طموحه وعقليته وهي تعرف قيمة المخطوطات والكتب، تشترك هذه الشخصيات الثلاث بمهمة تدوين ذاكرة مدينة بغداد كي تكون بعيدة عن الانهيار والتلاشي.

تقترن حياة ب(حازم) قبل ذلك، وهو استاذ للعلوم السياسية في الجامعة ويعمل سرا مع منظمة حقوق الانسان حيث يزودها بمعلومات عن إنتهاكات حقوق الانسان في العراق خلال التسعينيات، وكان والدها عدنان رشيد البابلي يتعاون مع هذه المنظمة سرا، ذات يوم يسافر حازم مع ثلاثة اشخاص الى تونس لحضور ندوة حول حقوق الانسان، بعد عودتهم يتم اختطافهم، ويوضعون فيما بعد تحت يد طبيب التجميل، وهو رسام تشكيلي معروف كما جاء في الرواية [2]، يرسم الغربان التي تلتهم مقل الأعين وأمخاخ الرؤوس، ومعروف ايضا بقص الألسن التي تشتم الرئيس، وصلم آذان الجنود الهاربين من جبهات القتال. يأمر هذا الطبيب أحد الممرضين أن يخدر حازم موضعيا، وأن ينزع ملابسه الداخلية أمام زملائه الثلاثة، يستأصل خصيتي حازم على حين غرة ويلقي بهما في إناء مملوء بسائل الفورمالين، ويبدأ بإخصاء الثلاثة وتسود الدنيا في عيونهم حينما يعلمون انهم فقدوا رجولتهم الى الأبد، بذلك يضطر حازم أن يطلق حياة البابلي.

أما (حامد الاخرس)، فهو جار لحياة البابلي وهو مدرس اللغة الانكليزية في احدى الثانويات ببغداد، يحب فتاة اسمها راوية يتعلق بها كثيرا، لكن راوية تحلم برجل يتزوجها ويهرب بها خارج حدود العراق الملتهب، اذ تحب نديم الذي يغدر بها ويتزوج من امرأة بريطانية لها علاقة بتنسيق موضوع المعارضة العراقية مع الجهات البريطانية، لايريد نديم الزواج من راوية بحجة انها تنتمي الى طائفة اخرى، ذات يوم يقرأ الاستاذ حامد للطلبة حوارا يدور بين مالكوم ومكدف في مسرحية (ماكبث) لشكسبير، ويسجل احد الطلاب صوت المدرس، وترد في الحوار توصيفات مثل المستبد والطاغية التي تؤشر الى طاغية بغداد، لذلك يتعرض حامد الى عقوبة قص اللسان لانه كما زُعم تطاول على شخص الرئيس.

ثمة اشقاء ثلاثة لحياة البابلي وهم مهند وماجد وهاني، معارضون للسلطة، يلقون مصيرا مؤلما بين قتيل ومعدوم ومتوار عن الانظار، عندما يتخرج مهند في كلية اللغات، يتم استدعاؤه للخدمة العسكرية التي يكرهها في

١- رواية "سيدات زحل"، ص٩.

٢- أشارت الرواية الى هذا الرسام اكثر من مرة، انظر الى الصفحة ١٦١والصفحة ١٦٩ على سبيل المثال-، في إشارة واضحة الى الفنان التشكيلي العراقي وطبيب التجميل والطبيب الخاص للرئيس العراقي المخلوع صدام حسين، وهو الدكتور علاء بشير.

ظل هذه السلطة المستبدة التي تنتهك حقوق الانسان علانية، وينقل الى المناطق التي تجري فيها معارك شرسة مع المسلحين الكورد عام ١٩٨٨، لم يبق على تسريح مهند من الخدمة العسكرية سوى خمسة عشر يوما، الا انه يُعاد الى اهله ملفوفا بعلم عراقي، اما خطيبته هالة فتحزن الى حد الجنون بسبب الفاجعة التي تعرضت لها، وفي حدث اخر تتهمها القوات الامريكية انها تتعاون مع شبكة إرهابية، فتقرر مغادرة العراق، وفي وقت سابق يُقتل أخوها في الانتفاضة التي جرت في النجف إثر الإنسحاب غير المنظم للقوات العراقية من الكويت في شباطسنة ١٩٩١.

اما ماجد فقد أعدم لانه رفض المشاركة مع القوات العراقية في إحتلال الكويت، ولهذا يتعرض الاب (عدنان رشيد البابلي) للإذلال والسجن، وبعد أن تتدهور صحته يطلق سراحه، لكنه يفارق الحياة بسبب المآسي المتتالية التي تتعرض لها العائلة. وهاني الشقيق الثالث لحياة وهو طبيب أسنان، تموت زوجته زينة إثر عملية الولادة التي يولد فيها سرمد، يضطر هاني الى ان يتوارى عن الأعين، اذ يتنكر بتغيير اسمه من طبيب الاسنان هاني البابلي الى مهندس الكهرباء علاء عبدالمجيد الحسني، يبيع بيته ويشتري بيتا جديدا في حي آخر بعيد، يفتح محلا لبيع الاجهزة والمعدات الكهربائية، ويخبر مستشفى الولادة خبرا غير صحيح بوفاة ابنه سرمد، اذ يربي ابنه بطريقة يصبح هذا الفتى اليافع عبقريا، يتقن اللغة الانكليزية بصورة مذهلة ويقرأ كتبا لعالم الفيزياء المعاق ستيفن هوكينغ، يتم اختطاف ابنه سرمد ولم يخل سبيله الا بعد ان يدفع مبلغا طائلا، عندها يفكر بالهروب من العراق الى اي بلد يحمي حياة ابنه.

في كراسة اخرى ثمة شخصية منار الطبيبة التي تتعرض للتهديد بالقتل مثل شقيقها الدكتور رافد، لانها متهمة بالتعاون مع العدو وتستلم أدوية من جهة أجنبية، وتوزعها على المستشفيات التي تعاني نقصا حادا في الادوية، اذ هناك ما يسمى ب"المجاهدين" الذين يهددون بقطع اعناق كل من يتعاون مع الجهات الاجنبية فيما يتركون الدبابات الامريكية وعجلات الهمر تجوب شوارع بغداد وأزقتها وتطلق النار لمجرد شكوك، ترفض الدكتورة منار الإنصياع لأوامر المجاهدين، لكنها تفاجأ ذات مساء بأربعة رجال ملثمين يداهمون منزلها، ثم يتناوبون على إغتصابها ويقتلون أخاها الدكتور رافد بحجة انه ملحد وكافر يؤمن بنظرية داروين التي تقول بأن أصل الانسان يرجع الى سلالة القرود، كذلك يقتلون والدتها ويغادرون المنزل بعد أن يصلُوا ويتناولوا وجبة الافطار التي هيأتها الوالدة قبل مقتلها. تعود شقيقتها الدكتورة آمال الى المنزل لتكتشف مقتل والدها ووالدتها وأخيها، لكن شقيقتها المغتصبة مازالت على قيد الحياة.

ثمة حالات إغتصاب اخرى في الرواية تتعرض لها ناهدة وساهرة وسهام وأطفال تعرضوا للإغتصاب عندما أُجبروا على ترك ملجأ الايتام ليصبحوا ضحية لقواد فاجر كان يعطيهم الحبوب المنومة ويتركهم تحت رحمة زبائنه الباحثين عن لذة الانحراف الجنسي.

الرواية مليئة بهذه الاحداث المفجعة، فهناك اختطاف ل(فتنة) زوجة الشيخ قيدار، والصحفية الفرنسية (بريسكا) التي تعمل في وكالة فرانس بريس تريد إنجاز لقاءات مع بعض الشخصيات، كما هناك حدث يُذبح فيه أربع فتيات يعملن في أحد البنوك وتُفصل رؤوسهن عن أجسادهن لانهن غير محجبات، وفي حادث اخر يتم بتر أرجل

الفتيان الذين يرتدون الشورتات وهم في طريقهم الى المسبح ويتركونهم يصرخون في العراء. وثمة في الرواية علاقة حميمية وعاطفية بين فتاتين هما (شروق) و(لمى)، وبعد ان تهجر شروق مدينة بغداد وتنقطع أخبارها عنها حتى وقت متأخر، وبعد ان تخفق شروق في إخراج لمى من العراق الى البلد الذي تعيش فيه، ولا تتحمل لمى فراق شروق وتنتحر.

أوجاع العراق في الماضي

ان تاريخ العراق حافل بالعنف والمآسي، وان العنف الدموي يلازم بلاد الرافدين العريقة في التاريخ القديم وحتى الان، ثمة ممارسة منظمة للموت والتعذيب بأبشع صوره، حيث هناك قطع الاذن والانف والاطراف والرأس، وسحل الجثث والتمثيل بها والتنكيل بها بشتى الاساليب المقرفة، ويبدو ان البشاعة هنا تصبح حالة سلوكية متجذرة تستولي على الممارسات الانسانية، اذ كلما أتسعت مساحة العنف وكثر عدد القتلى، كان استمرار العنف أطول وأعمق، العنف الذي تمثله الطاقة المجنونة التي تزيل الحياة بأكملها وتزيحها من فضائها الآمن، وقد يكون هذا احد الاسباب الكامنة وراء استمرارية العنف والمآسي والاوجاع القائمة في العراق ماضيا وحاضرا. اذ كان الفساد والفوضى والحرب والمجاعة يسود القرنين التاسع عشر والعشرين بصورة مذهلة، و"لقد تقاربت الاحداث الدموية وفعاليات العنف من بعضها البعض وازدحمت وتداخلت في كثافة مخيفة لتشكل ما يشبه المسلسل المتواصل من أعمال الرعب والعنف والفوضى والاضطراب وسفك الدماء" [1]، بحيث أُصدرت أحكاما مسبقة تؤكد على "تميز الشعب العراقي بشكل عام بالعنف والقسوة والشراسة والتطرف في التعامل في ما بينه ومع الآخرين. وان هذه الميزة ثابتة لديه منذ القدم، وهي ما تزال قائمة وتتجلى في أفعال الفرد والمجتمع إزاء الأحداث التي يمر بها و ردود فعله لها وطريقة تعامله معها"[2]

ثمة في الرواية احداث مؤلمة جرت في الوقت الحاضر، لكن لها جذور تاريخية، حدثت بشكل اخر في زمن ماض، اذ ان الاحداث التي جرت في الماضي، نرى امتداداتها في الحاضر، وهذا ما عبرت عنه رواية (سيدات زحل) في فصول منها، اذ ثمة احداث جرت وتجري بين زمنين، واحداث جرت في الزمن الماضي.

تقف الرواية، من خلال الشخصيات الرئيسة، بين زمنين، الماضي والحاضر، اذ نرى حياة البابلي و إسمها، في تناه وتقمص فني، (زبيدة التميمية)، وزوجها هو (ناجي بن علي الراشدي) الذي كان يعمل ترجمانا في جريدة "جورنال عراق" التي أسسها الوالي داوود باشا أوائل القرن العشرين، اما والدها فكان اسمه (اسماعيل أفندي التميمي)، وإسم عمه قيدار هو (عبدالغفور التميمي)، فهي تحمل ذاكرة المرأتين حياة وزبيدة، وتروي ما جرى في الماضي من احداث شاهدتها، وبين هاتين المرأتين تموج ذاكرات نساء أخريات تسيل احداث حياتهن منها مثل شلالات خيوط ملونة، وقصصهن هي طوفان ومياه تغرق الجميع وتحرك مصائرهن، "كنت زبيدة العاشقة

١- باقر ياسين، تاريخ العنف الدموي في العراق، دار الكنوز الادبية، بيروت-لبنان، ١٩٩٩، ص٢٦٩.

٢- د.كاظم حبيب، لمحات من عراق القرن العشرين، الكتاب الاول، العراق حتى بداية الاحتلال العثماني، دار آراس للطباعة والنشر، اربيل، ٢٠٠٣، ص٣٣٢.

المعشوقة إبنة السابعة عشرة التي أبلغته سر النساء، ذلك الذي آل الي من إرث العرافات ناقلات الحكمة في جلجلة الانوثة، وصلني السر نقلا عن جدة جدات ابي أمينة خان الكردية الجميلة، ومن جداتي اللاحقات: صفية العربية ذات العينين الشهلاوين الشاسعتين، و آيتن التركمانية و آنوش الارمنية" [١].

بعد زوال السلطة العثمانية التي مارست اعمالا شنيعة من الظلم والقتل والاستعباد والعنف الدموي، حيث كان "الظلم في العهد العثماني قد بلغ درجة يندر أن نجد لها مثيل في أي عهد آخر" [٢]، بدأ الناس تأييدهم للعهد الجديد الذي علقوا عليه الكثير من الآمال، اذ بعد سقوط الدولة العثمانية وإنشاء الدولة العراقية، تتغير أحوال الناس ونوع مآسيهم، فهي، اي زبيدة، شاهدة على صنع الدولة في بغداد على أنقاض الحكم العثماني، ودور (مسز جرترود بيل) صانعة الملوك، تلك البريطانية التي حكمت الشرق من وراء غلالة الشغف والطموح الامبراطوري، اذكانت "هذه الآنسة تتولى منصب السكرتيرة الشرقية للمندوب السامي في العراق، واعتادت ان تسجل ذكرياتها في رسائل تبعثها الى أمها أو أبيها أو أحد أقربائها وأصدقائها (...) وتعطينا هذه الرسائل كثيرا من الصور النفسية والاجتماعية التي يندر ان نجد لها مثيلا في الوثائق"[٣]، لكن ذاكرة زبيدة تعود على نحو مباغت الى ذاكرة حياة البابلي لتروي ما حدث في الثاني عشر من نيسان عام ٢٠٠٣، حيث تحترق تقاويم الزمن، وكان العامة والجياع واللصوص المحترفون الذين فتحت لهم القوات الامريكية مصاريع أبواب القصور الرئاسية، و"قد دمروا كل شيء لم يتمكنوا من حمله، تضافر جشع تجار المأثورات مع شهوات المحرومين الذي (كذا) عاشوا عقودا بين مياه المجاري وأكواخ الطين، فهبوا يحملون كل ما تقع عليه أيديهم مدفوعين بتاريخ موغل في الحرمان، لم يميزوا بعدها بين قصر حاكم ومكتبة ومتحف" [٤].

تعود حياة البابلي في الكراسة ١٩ الى زمن موغل في القدم، زمن الحاكم المنغولي هولاكو في سنة ٦٥٦ للهجرة، ١٢٥٨م، الذي احتل معظم بلاد جنوب غرب آسيا وقضى على الخلافة العباسية، بعد أن قتل الملايين من أهلها، وقد نزل هولاكو على ابواب بغداد وبنى المغول بالجانب الشرقي سورا عاليا، وحفروا خندقا عميقا داخل السور ونصبوا المنجنيقات بإزاء سور بغداد من جميع الجوانب ورتبوا العرادات وآلات النفط، تصف حياة البابلي هذه الحرب من خلال الكراسة بقولها: "أرى الحرب وقد نشب القتال ووقف قائدهم بعساكره إزاء السور، وأما حال العسكر السلطاني فإنه في يوم الخميس رابع محرم من سنة ست وخمسين وستمائة دهمته المباغتة وثارت غبرة عظيمة شرقي بغداد على درب بعقوبة وعمت البلد، فارتعب الناس وصعدوا الى أعالي السطوح والمنائر يتشوفون، فانكشفت الغبرة عن عساكر السلطان وخيوله وقد طبق وجه الارض وأحاط ببغداد من جميع جهاتها (...) وشرع عساكر هولاكو في نهب بغداد وحرقها وألقوا بخزائن الكتب والمخطوطات في دجلة (...) دام نهب بغداد سبعة ايام اما هجم الغوغاء على المساجد والقصور والاسواق ودار سك النقود وسوق الذهب ودار الحكمة وبيت

١- رواية "سيدات زحل"، ص٢٤.

٢- د.علي الوردي، دروس في حياتي، اعداد ماجد السامرائي، مكتبة المجلة بغداد شارع المتنبي، ٢٠١٥، ص ٣٨.

٣- د.علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، الجزء السادس، دار بهجة المعرفة، بيروت و بغداد، بلا، ص ٦.

٤- رواية "سيدات زحل"، ص ١٠٢.

القضاء والمدرسة المستنصرية والبيمارستان والشرابخانات التي تبيع العقاقير وأحرقت سوق الوراقين وسوق باعة الخز والحرير وسوق العطارين والصفارين والسراجين" [١]. وفي الكراسة ٢١ تعود ذاكرة حياة الى زمن مجيء مريم خانم والدة داود باشا الى بغداد، متناولة أصل داود باشا المملوك الجورجي الذي كانت أسرته رقيقا لعائلة نبيلة في تفليس، وفي الكراسة ٢٢ الطاعون يجتاح سماء بغداد ويمتد الخراب وكان ألف شخص يموت يوميا "حتى وصل الطاعون الى حينا، لم يتبق من بيت جارنا الارمني الا ثلاثة أحياء من أصل عشرين ولداوأخا وبنتا وزوجة وطفلا" [٢]، وتجتاح العصابات معظم مناطق بغداد تنهب وتقتل المحتضرين، ويلزم الناس بيوتهم وتنتشر الجثث في الطرقات دون ان تجد من يواريها التراب، "ولفرط الرعب عكف الكثير من الرجال على الخمرة وانصرف اخرون الى الصلاة وهام بعض الشباب في الازقة يقنصون نساء لمتعة ما قبل الموت، والمجرمون يتصيدون ضحاياهم في الطرقات، وما عاد بوسع قوات المماليك كبح جماح العنف" [٣]، وخلال ثلاثة ايام تهطل أمطار غزيرة كي تزداد المآسي والويلات، اذ تعم الفيضانات مدينة بغداد، تغرق الازقة والبيوت وتنهار الكثير من المنازل المبنية بالطين، فيسخر الوالي جيش المماليك ومن نجا من الطاعون في إقامة سدود ترابية لحماية المدينة من الطوفان.

ثمة في الرواية حدث تاريخي مرعب جرى في أواخر الستينيات من القرن العشرين بقرية مسيحية تدعى صوريا، اذ كان عشرون عائلة مسيحية تسكن قرية صوريا وتعمل في زراعة الحنطة والشعير والخضار وتربية المواشي، تمر قوة عسكرية بقيادة الملازم عبدالكريم الجاهلي وتمكث بعض الوقت في القرية، يرحب الاهالي بالجنود ويقدمون لهم ما تيسر لديهم من جبن ولبن وخبز، بعد مغادرة الجنود للقرية وعلى مبعدة خمس كيلومترات ينفجر لغم تحت احدى العجلات العسكرية دون ان يصيب احد بالاذى، لكن الملازم عبدالكريم الجاهلي يأمر جنوده بالعودة الى القرية ثانية ليجمعوا سكانها في حظيرة الحيوانات، وكان القس حنا قد وصل صباحا لزيارة رعيته وأقاربه في صوريا وليقيم قداسا على روح سيدة مسنة ماتت منذ اسبوع، نصح الاب حنا رجال القرية بعدم الفرار بعد ارغامهم من قبل الجنود على الركوع وضربهم بإعقاب البنادق والحراب، ذلك لان بعض الرجال فكر بالفرار، وحينما أتم الجنود جمع سكان القرية، يمسك الملازم رشاشته ليشرع بإطلاق النار على الحشد، وعندما تدرك ليلى إبنة المختار ما يحصل لأهلها، تهاجم الملازم وتمسك ماسورة الرشاش بقوة، وحينما يعجز الملازم عن انتزاع الرشاش من قبضتها يسحب مسدسه ويطلق النار على رأسها ثم يبدأ بإطلاق النار من رشاشه على المدنيين، وكلما نفد الرصاص استبدل مخزن الرشاش بآخر جديد حتى يتأكد بأنه قتل الجميع، ثم يصدر أوامره الى الجنود ليضرموا النار في بيوت القرية، "منع الجنود الناس من الوصول الى موقع المجزرة لدفن الموتى وتركوا جثث الضحايا ثلاثة ايام وثلاث ليال كاملة فانقضت عليها الطيور الكاسرة والكلاب السائبة" [٤].

١- الرواية، ص ٢١٥-٢١٦.

٢- الرواية ص٢٢٩؟

٣- الرواية ص٢٣١.

٤- الرواية، ص ٣١٨.

أوجاع العراق في الحاضر

أفرزت التغييرات السياسية والاجتماعية التي شهدتها المجتمعات العربية خلال العقدين الاخيرين، أفرزت رؤى مأساوية للعالم، ويأتي السرد الروائي ليمثل الحالة المزرية التي يعيشها انسان هذه المنطقة، وفي العراق على نحو خاص، وما تشهده من تقلبات في المصائر، اذ اتخذ العنف الدموي في العراق حالة دائمة، وبصورة خاصة اثناء التغييرات والانقلابات وتقلبات المصائر.

تنطلق رواية (سيدات زحل) من مصائر مفجعة لمعظم الشخصيات المؤثرة في الرواية، مصائر تؤدي الى نهايات مأساوية، ومن واقع مليء بإنتهاك أبسط الحقوق للمواطن، اذ بعد سقوط نظام بغداد اوائل ٢٠٠٣، تصاب حياة البابلي بأنواع مختلفة من الرعب والمصائب، ففضلا عن الدمار والفوضى والسرقة والقتل والعنف الدموي، تصاب المدينة بشلل تام من حيث الخدمات، "لا كهرباء في المدينة، بدأنا نعتمد على مولدات الكهرباء، وللسبب ذاته انقطع الماء ايضا، أخذنا نجمع قطرات ماء من حنفيات الحديقة التي تقطر ماء شحيحا يعيننا على البقاء لأجل يسير، لم أعرف الوقت، الشمس في السمت، وإذن هي الظهيرة وإذن هو نهار القتل والموتى ورعب المداهمات"[١]. حتى تماثيل الشعراء تزحزح عن قواعدها وتنزل الى الشوارع لترى الهول، ابو نؤاس يترنح ثملا والدموع تسح على وجنتيه ما بين فندق الميريديان والشيراتون، والرصافي يسير حزينا في شارع الرشيد، يشاء احتساء الشاي في مقهى معروف كان يرتاده، لكنه يجد مكانه دكانا لبيع رمانات المتفجرات والاسلحة والملابس العسكرية، ويبحث عن مقهى اخر فيجده مرتعا لصبيان يشمون السيكوتين ويتبادلون حبوب الهلوسة[٢]. اما لمى، عازفة الكمان، المرهفة الحس وصديقة حياة، فلا تطيق ما تراه من الدمار، فتختار الموت بنفسها، وقبل ان تنتحر، تكتب رسالة لحياة تقول فيها "الموت الذي نختاره أهون على أرواحنا من موت يقرره لنا القتلة، بغداد دخلت منطقة الغروب التي ستطول، سأمضي معها في درب الغياب، أدفنوا آلة الكمان أو قدموها هدية لزملائي في الفرقة السيمفونية، لم اشأ ان أحرقها معي، الفن بريء من جنوننا" [٣].

اما راوية، فتتلقى مصيرا مفجعا آخر، اذ يطارده رجال ميليشيا ملتحون ويرشون على رأسها وثيابها طلاء أسود لانها لا ترتدي الحجاب و جوارب سميكة وجلبابا، ينعتونها بالعاهرة لانها تصبغ شعرها باللون الأشقر وترتدي بنطلونا وتذهب الى عملها في سيارة أجرة مع ثلاثة موظفين من زملائها، وتدعوهم أحيانا لشرب الشاي مع أمها صباحا حين تقطع الطرق بعد الإنفجارات وينتظرون ساعة او اثنتين حتى يعاد فتح الشوارع المغلقة، انها أوضاع جديدة مأساوية غير مألوفة لسكان المدينة التي لها تاريخ حضاري عريق، لقد عاشوا فيها مترفهين، تقول حياة مروية هذه الفاجعة "احتمت راوية ببيتنا، لم تذهب الى العمل، قالت: هددوني بقطع رأسي ان لم أضع حجابا، يقطعون رأسي، تصوري، لايصمدون أمام شعر انثى، يسيل لعابهم وشهوتهم" [٤]. فالمدينة مغطاة بضباب

١- الرواية، ص ١٣.

٢- الرواية، ص٣٠-٣١

٣- الرواية، ص٣٦-٣٧

٤- الرواية، ص٧٤.

الموت ودخان الحرب، رصاص وعويل وهدير الدبابات والصمت المتوتر، اذ تلوذ حياة البابلي و راوية ومنار وهالة وبريسكا الصحفية الفرنسية، التي تعمل مراسلة لوكالة فرانس بريس، مهمتها هي لقاء شخصيات لها اساطيرها الخاصة ومن عشاق بغداد، يلذن هؤلاء النسوة بسرداب البيت مدة طويلة، ثم يأخذهم عمار بسيارته الخاصة الى حيث مهمة بريسكا، اما عمار فهو صديق حياة البابلي، أهله محاصرون وموزعون بين الفلوجة والرمادي مع زوجته واولاده الثلاثة، وهو ممنوع من دخول المدينتين لانه لايملك وثيقة من الجيش الامريكي، ذهب مرتين ووقف في صف طويل تحت الشمس على مشارف الفلوجة، انتظر خمس ساعات وعاد بضربة شمس حيث رفضوا منحه بطاقة المرور الى المدينة المحاصرة، ان رجال القاعدة اختطفوا أخاه سلام، طالبوا بفدية كبيرة لايملكونها، ولما لم يدفعوا لهم قتلوا سلاما وألقوا جثته أمام باب أهله ومعه رسالة تفيد بأنه متعاون مع الإحتلال، ذلك لانه رفض منح سيارته التاكسي للمجاهدين. وعند مرور هؤلاء النساء بشارع دمشق يصادفن مشاهد مزرية، يقفن بحزن أمام معهد الفنون الجميلة، اذ ان المعهد مهجور وتماثيله حطمت وشوهت اللوحات الجدارية، أما مدرسة الموسيقى والبالية فنهبت وحطمت آلات البيانو وقاعات التدريب.

تموت والدة حياة قهرا، بعد عام واحد من وفاة والدها قبل سقوط النظام، وهو توفي ايضا من قهر إعدام إبنه ماجد، حيث بعد إعدامه يزورهم ضابط من الجيش المهزوم ويطالبهم بثمن الرصاصات التي قتلوا بها ماجد، يتعرض والدها لمساءلات ويذلوه في الاستجواب قائلين له انت والد الخائن، "أعتقلوه وهو في الخامسة والستين، لم يحاكم، وما سمحوا لنا بزيارته، وعندما انهارت صحته أطلقوا سراحه، عاد محطما، اختفى الاستاذ الانيق اليساري البورجوازي كما أسماه زميلي، تلاشى عدنان رشيد البابلي التميمي، نام ليلتها وفي الصباح وجدناه ميتا" [١].

تستمر الرواية في سرد احداث العراق المأساوية حاضرا، لتصل الى ما جرى لمهند شقيق حياة البابلي، اذ فور تخرجه في كلية اللغات يستدعونه لخدمة الاحتياط ويرسلون وحدته الى الشمال حيث تدور المعارك الشرسة سنوات ١٩٨٧-١٩٨٨، يبقى مهند في هذه المنطقة مدة طويلة، كان سيسرح بعد خمسة عشر يوما عندما قتل في إحدى المعارك مع البيشمركه، كان يريد بعد تسريحه ان يهرب مع خطيبته عبر جبال كردستان وراء مدينة زاخو الى تركيا، كان ينوي الفرار من جحيم العراق، لكنه قتل والمعارك مستمرة والارض المحروقة تتسع ومئات القرى الكردية تتحول الى رماد، يهرب بعض اهلها الى ما وراء الحدود ويموت الذين عجزوا عن الفرار، كانت الوحدة التي ينتمي مهند اليها، تولت حرق القرى، اذ يقوم افرادها بجمع النساء والبنات الصغيرات من القرى التي أحرقت ليلا، ويضعوهن في كرفانات داخل المعسكر ثم يغتصبوهن ويقتلوهن، يقول زياد الذي أتى بجثمان مهند الى أهله: "وجدنا ملابس البنات الداخلية الممزقة مدماة ومنثورة في الكرفان، نحو أربعين قطعة لأربعين امرأة، والجثث ملقاة على السفح، لم يجرؤ أحد على دفنها، بل لم يكن هناك أحد ليقوم بالدفن، هرب الرجال والشباب الى ما وراء الجبال، قال مهند ونحن أمام المشهد المريع لملابس البنات: أي وطن وحش وحقير هذا الذي يغتصب

١- الرواية، ص ١٣٩.

جيشه مواطناته؟" [١]. حيث سيق مهند الى المعركة عنوة ولم يكن يؤمن بها، اذ عندما يشهد الظلم الذي يرتكب من قبل جيش وطنه، يستفز ولايشرفه وطن العار هذا، يقرر الفرار من الجيش ليأخذ حبيبته هالة من كل هذا الموت ويهربان الى حيث قيم الانسان والمواطنة، هذا ما كان يفكر به مهند قبل مقتله.

يعتري اليأس معظم الشخصيات الرئيسة في الرواية من جراء تردي الاوضاع السياسية وكثرة الجرائم والقتل والذبح والاختطاف، حتى ان بعضهم يعتقد ان "حياتنا الغرائبية في العراق أصبحت ضربا من الجنون" [٢]، ففي مشهد دراماتيكي مثير يتم اختطاف سرمد إبن هاني من قبل مسلحين مجهولين، سرمد هذا الفتى العبقري الذي يقرأ نظريات العالم الفيزيائي الشهير ستيفن هوكينغ الذي يقول إذا استطعت ان تفهم كيف يعمل الكون فستتمكن من السيطرة عليه، واستطاع ان يتقن اللغة الانكليزية عن طريق التسجيلات وإذاعة بي بي سي ويثير إعجاب الجميع، بحيث يخشى والده من مصير ابنه، ويسعى ان يخفيه من أمام الاعين او إخراجه الى خارج العراق، يعزله عن البشر ويحميه من الكراهية وفساد الروح والاكاذيب ومن انحرافات العقول، لكن بعد اختطافه، يبدأ جسد هاني يتهاوى وتذبل عيناه ويبكي على الدوام، بعد إختطافه بشهرين، يجد هاني رسالة تحت باب الحديقة تطلب مائة ألف دولار وإلا لن يرى إبنه، "سنتصل بك بعد يومين، إن بلغت عنا سنرسل لك رأس إبنك" [٣]، يضطر هاني الى دفع مبلغ مضاعف لصاحب مكتب العقارات لبيع بيته، ويبيع كذلك حلي زوجته وسيارته الجديدة ليفتدي الولد، يجمع المبلغ المطلوب وينتظر اتصال الخاطفين، بعد ثلاثة أيام يرن هاتفه ويحددون له مكان اللقاء، بعد ان يحظى بأخذ إبنه الى البيت، حيث أصبح نحيلا ومرعوبا ويده مربوطة بخرقة قذرة وثيابه ممزقة، يقرر مجددا أن يهربه الى خارج حدود العراق، "اللعنة على هذا العالم المتوحش، سأهرب به الى أي جحيم خارج العراق، لابد أن أنقذه من هذا الخراب، لابد أن أوصله الى بلد يهتم بعبقريته، من الغد سوف أشتري لنا جوازات مزورة وأمضي به.." [٤].

وفي الرواية حدث كارثي حقيقي، إذ في الكراسة ٣١ نقرأ وجعا آخر من أوجاع العراق حاضرا، تروي حياة البابلي مأساة الايتام الذين يتعرضون لأبشع أنواع الإذلال والإهانة، ففي ليلة متأخرة تأتي راوية الى بيت حياة ومعها خمسة صغار مشردون وجدتهم ينامون في مدخل احدى البنايات، كانوا يشعلون قطعا من الورق المقوى في برميل صغير وهم ملتصقون ببعضهم طلبا للدفء، لكن كيف حدث ذلك، ولماذا تشرد هؤلاء الايتام في الشوارع بعد أن تعم الفوضى جميع أرجاء المدينة، يقول أكبرهم بلهجته الطفولية: "كنا في أحد ملاجيء الايتام في منطقة العلوية بشارع النضال عندما هرب الموظفون المرعوبون وهم يرون الدبابات الامريكية تدخل الزقاق، كنا نبكي وخايفين،كانت ست سناء تنام ويانا في الليل، لكن ست سناء ما تقدر تيجي بيتها بعيد، بقينا نصرخ طوال الليل، الحارس حميد تركنا في الليل وحمل معه الكومبيوتر وراح، بقينا ثلاثة أيام ولم نجد ما نأكله، جاء

١- الرواية، ص ١٤٣.

٢- الرواية، ص ١٥٠.

٣- الرواية، ص ١٥٩.

٤- الرواية، ص ١٥٩.

الحرامية ونهبوا كل شيء، الجنود الامريكان ما طردوهم كانوا واقفينيضحكون ويعطون الحلويات والبسكويت للحرامية، كنا أحد عشر يتيما، حبسونا في غرفة، وفي الصباح جاء رجل وعائلته وأتت عوائل اخرى وسكنوا في البيت، قال الرجل عليكم ان تخرجوا للعمل إذا أردتم النوم معنا في البيت..كل واحد يجيب لي عند المغرب خمسة آلاف دينار ومن يرجع بلا فلوس ينام بالشارع" [١]، في اليوم الاول يتم اختطاف أكبر بنات الايتام من قبل سيارة شرطة، ولم ترجع، وفي اليوم الثاني يضيع محمد وعمره سبع سنوات، وبعد أسبوع تختطف سيارة بها مسلحون طفلتين، والبقية يبكي خوفا من مصيرهم المجهول، والرجل الذي يسكن في بيت الايتام يضربهم لانهم لم يحصلوا على نقود كافية، ومأساة اخرى كثيرة ترميهم في غياهب المجهول، لكن في الاخير يتكفل حامد الاخرس بالاطفال وينجح في تسجيلهم لدى أحدى دور الرعاية الاجتماعية، اذ يتعلق حامد بهم ويزورهم ويحضر لهم الهدايا من دكانه. لكن الاختطاف بشتى طرقه مستمر، اختطاف المسيحيين على نحو خاص، والمتشددون يفجرون الكنائس والاديرة ويغتالون المسيحيين في الموصل وبغداد، حيث اختطفوا لينا الشابة الجميلة المسيحية، خُطفت من شارع فلسطين، كانت مع أمها، تحاولان استئجار تاكسي أمام الكنيسة، اختطفت لينا ولم تعد.

رسالة الرواية:

دعوة الى التسامح للخلاص من الأوجاع

إن رواية (سيدات زحل) ليست منطوية على مشاهد العنف والاوجاع فحسب، وإنما هناك مشاهد وأحداث دالة على الوئام والتسامح، وداعية الى التعايش السلمي بين الإثنيات والطوائف، تعبر لفظة التسامح في هذه الرواية عن دعم الممارسات والافعال التي تقف بالضد من التعصب والتناحر الطائفي والعرقي، جاءت الرواية لإثبات ثنائية التسامح والتعصب في المجتمع العراقي ماضيا وحاضرا، لكنها تدعو، في الاخير، الى نبذ التعصب الديني والعرقي والفكري وتدعو الى التسامح والتعايش بمختلف ألوانه ومظاهره، على الرغم من ان الطابع الغالب فيها هو إنتهاكات لحقوق الانسان والمواطنة التي سادت في العراق زمنا طويلا.

نرصد في الرواية بعض الظواهر او المشاهد التي تدل على وجود التسامح والوئام في المجتمع العراقي عبر تاريخه الطويل، والتي تضفي على الرواية توازنا وجمالية أدبية تندرج ضمن التقنيات السردية التي استخدمتها الروائية.

ان حياة البابلي وهي الشخصية الرئيسة في الرواية، تتقمص شخصية اخرى من التاريخ وهي زبيدة التميمية، اذ تعتقد انها من أحفادها، فهي تعرف سر النساء، والمعرفة هذه تأتيها من جدة جدات أبيها، وهي: أمينة خان الكردية الجميلة، ومن جداتها اللاحقات: صفية العربية ذات العينين الشهلاوين الشاسعتين، و آيتن التركمانية و آنوش الأرمنية (ص٢٤)، ففي الكراسة ١١ نجد إشارة واضحة الى حرية المعتقد والى نمط التسامح الديني والعرقي الذي كان موجودا في المجتمع العراقي، اذ تقول الراوية: "ورثت زينة الجمال الأشقر من عائلتها التركمانية، جدها أرشد سليم اوغلو من كركوك، تزوج حسناء من بلاد القفقاس، وأبوها عشق فتاة آثورية

١- الرواية ، ص ٣٠٤.

وتزوجها وهي شميران الجميلة التي أسلمت حسب ما روى والد زينة واتخذت لها اسم سميرة. غفر لها ذووها زواجها وجرى الصلح في عيد نوروز الذي تصادف مع عيد الأضحى بعد أن ولدت التوأم زينة و يازار، وأحضرت العائلتان الذبائح والهدايا واحتفلوا في بيوت العائلتين باتفاق والد شميران عوديشو ياقو ووالد زينة سليم أرشد سليم اوغلو، وأخذوا زينة ويازار الى قلعة كركوك، قال أبوها: لا نذهب الى مسجد أو كنيسة، سنبارك المولودين في القلعة، هذه القلعة سرة كركوك وتعويذتنا، يومها أسره سليم والد زينة:

- عمو عوديشو، تركت لشميران حرية العبادة، صحيح انها رسميا مسلمة، لكن هذا لن يغير من الامر شيئا، كلنا نعبد الرب الواحد، فالدين هو صلة روحية بالله وليس طقوسا وتسميات..
- وهل ستدعها تأتي الى الكنيسة؟!
- هذا يتوقف عليها هي، لتفعل ما تريد..
- في تلك اللحظة نهض عوديشو وعانق سليماً وبكى" (١)

وفي الكراسة ٢٢ نجد التسامح الديني الذي يقف على الثنائية الرائعة (الاختلاف والتنوع)، حيث مساعدة البعض عند الشدائد بغض النظر عن الدين والعرق والطائفة، والمشاركة في أعياد الأقليات الدينية والإثنية، ولاسيما الأعياد الايزدية وعيد نوروز، التي تعكس هذا التسامح بوضوح. "بعد ان ضربت بغداد موجة جديدة من الطاعون، قرر أبي أن يأخذنا الى الموصل أنا ووصيفاتي، لأمضي شهورا في بيت أمير اليزيدية بين بناته وجواريه في (عين سفني) ووادي لاليش بين أشجار الجوز والبلوط والصنوبر على سفوح الجبال الحمراء. حين وصلنا كانوا يحيون احتفالات عيد (الجما) في معبد (لاليش) ذي القباب المخروطية المحززة، عيد استعادة الخصب الذي دام سبعة ايام بلياليها وشاهدنا طقوس الخصب المتوارثة من عصور سومر القديمة (...) أمضينا الشتاء هناك وحل موسم الثلوج الذي حاصر وادي لاليش والقرى حوله واكتفينا بتناول خبز الرقاق والتين المجفف واللبن والزبيب وبيض طيور القبج (...) كنا نسمر عند كوخ على السفح وأعطاني شاب يافع منهم تمثال طاووس صغير بحجم قبضة اليد وقال: هذا لك لتذكري (عيد سرسال) اي عيد رأس السنة عندما نزل طاووس ملك الى الارض وأنبت الزهور وأعاد الربيع وجدد الحياة، هو مقدس عندنا، ولانعطيه الا لمن يحفظ له قدر قداسته، احفظيه عندك وسيحميك من الشرور" (٢).

نلمس في الرواية زيارات أهالي العراق للأضرحة والعتبات المقدسة في المناسبات الدينية المختلفة، سواء أكانت مناسبة دينية من غير دينها او قومية من غير قوميتها او طائفية من خارج طائفتها، اذ جاءت في الرواية ان "في العيد تتولد الفرحة من الروائح (...) وجوه ريانة لنساء بعباءات حرير تخشخش خلاخيلهن الذهب في كل خطوة، يدخلن الحضرة القادرية لزيارة الشيخ عبدالقادر الكيلاني (...) ثانية أجدني مع قريباتي وهن يطفن في أزقة الكاظمية العتيقة بين بيوت ذات شرفات وشناشيل (...) عندما أزور بغداد خذيني الى مرقد الفيلسوف الطوسي أستوضح الحقيقة في سقوط بغداد من كان وزيرا لهولاكو، ارشديني الى مكتبة المخطوطات فأنا أعد كتابا

١- الرواية، ص١٤٧-١٤٨

٢- الرواية، ص ٢٣٢-٢٣٣

عن سقوط المدن" ([1]). وثمة زيارات لمرقد الكاظمين، والدوران حول ضريح الامام موسى الكاظم، وزيارة معابد الايزديين، وزيارة جامع الأمام الأعظم، وزيارة المدن الكردية اثناء عيد نوروز.

وفي الكراسة الثانية، تخبرنا الراوية بنوع اخر من التسامح، وهو الفرق بين النبيذ والخمر، وتعاطي النبيذ عند المسلمين، اذ تقول: "كان عمي قيدار يصنع نبيذ سنته كل صيف من تمر نخلنا والتين المجفف والخميرة وبعض الليمون والعسل، كان يقول لأبي عندما يرى استغرابه: المسلمون الاتقياء يتعاطون نبيذ التمر لا خمر العنب، فهو بلسم روحاني وموقظ للفرح ومجدد للقوى أن كان تحت حدً السكر متبعين رأي أبي حنيفة في تأويل حد التحريم في الأنبذة لمتخذة من التمر والتين والزبيب والحمور المتخذة من العنب" ([2]).

وفوق ذلك رصدت الروائية، الى جانب الشواهد المذكورة، مشاهد عديدة اخرى في تصوير التسامح والتعصب، وتجسيدهما في أحداث من الزمن الماضي والزمن الحاضر، مستلهمة نماذجها من تاريخ العراق القديم والحديث عبر عصوره ومراحله المختلفة.

إذن تُعد روايتنا هذه شهادة أدبية كبيرة، تؤرخ لمرحلة بالغة الاهمية في تاريخ العراق، من حيث العلاقات الطيبة حينا، والعدوانية حينا آخر، بين أطيافه المختلفة.

الإستنتاج

بعد قراءتنا لهذه الرواية وتحليلها سوسيولوجيا وتاريخيا، توصلنا الى نتائج واضحة، ووجدنا ان تاريخ العراق، ماضيا وحاضرا، حافل بالعنف الدموي والمآسي المفجعة، وهناك ممارسات منظمة للقتل بأبشع صوره، اذ ان البشاعة، في هذه الرواية، أصبحت حالة سلوكية متجذرة لدى بعض شخصيات الرواية، وان اتساع مساحة العنف يُعد من أحد الاسباب الكامنة وراء استمرارية المآسي والويلات والاوجاع القائمة في العراق ماضيا وحاضرا. نلمس في الرواية احداثا مؤلمة، لها جذور تاريخية في زمن ماض.

توصلنا، كذلك، الى ان هناك مصائر شنيعة لمعظم شخصيات الرواية تؤدي الى نهايات مأساوية، يأتي السرد الروائي ليمثل الفواجع التي عاشها الانسان العراقي في الماضي، ويعيشها في الحاضر، متخذا العنف الدموي حالة دائمة. سعت الرواية الى سرد الاحداث التي لم يُعن بها التاريخ ولم يسردها، اذ رأينا انها تسرد أوضاع المهمشين والناس العاديين في حياتهم الاجتماعية، ذلك لأن الرواية هي تاريخ من لا تاريخ لهم من البسطاء والمهمشين. حاولت الروائية ان تجمع بين الأحداث التاريخية وبنية السرد الفني الخيالي.

ورأينا ان الرواية هذه، ليست منطوية على أحداث العنف والاوجاع فحسب، بل ثمة مشاهد واحداث وحوارات دالة على الوئام والتسامح في مراحل مختلفة من تاريخ العراق القديم والحديث، مشاهد تدعو الى التعايش السلمي بين الإثنيات والأديان والطوائف، اي ان الرواية جاءت لتجسد ثنائية التعصب والتسامح في المجتمعات العراقية

١- الرواية، ص ١٩٠-١٩١

٢- الرواية، ص ٥٢.

ماضيا وحاضرا، لكنها تدعو، في الأخير، الى نبذ التعصب الديني والعرقي والايديولوجي، والتي تضفي على الرواية توازنا وجمالية أدبية، تندرج ضمن التقنيات السردية الحديثة.

توصلنا الى ان هذه الرواية، هي شهادة أدبية كبيرة على مراحل تاريخية بالغة الاهمية من تاريخ العراق القديم والحديث، ساعية الى عدم السقوط في فخ السرد التاريخي للاحداث، والى الاهتمام بفنون السرد الحديثة.

المصادر والمراجع:

أ- المصادر:

١- لطفية الدليمي، سيدات زحل، رواية، فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة، عمان- الاردن، ٢٠١٠.

ب- المراجع:

٢- باقر ياسين، تاريخ العنف الدموي في العراق- الوقائع الدوافع الحلول، دار الكنوز الادبية، بيروت- لبنان، ١٩٩٩.

٣- بول آرون وآخرون، معجم المصطلحات الادبية، ترجمة: د.محمد حمود، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٢

٤- جيسي ماتز، تطور الرواية الحديثة، ترجمة وتقديم: لطفية الدليمي، دار المدى، بغداد وبيروت ودمشق، ٢٠١٦.

٥- سعد البازعي، سرد المدن في الرواية والسينما، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، بيروت والجزائر، ٢٠٠٩.

٦- د.علي الوردي، دروس في حياتي، اعداد ماجد السامرائي، مكتبة المجلة، بغداد شارع المتنبي، ٢٠١٥.

٧- د.علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق لحديث، الجزء الرابع و الجزء السادس، دار بهجة المعرفة،بيروت وبغداد، بلا.

٨- د.كاظم حبيب، لمحات من عراق القرن العشرين، الكتاب الاول، العراق حتى بداية الاحتلال العثماني، دار آراس للطباعة والنشر، اربيل، ٢٠٠٣.

٩- كامل عويد العامري، معجم النقد الادبي، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ٢٠١٣.

١٠- د.لطيف زيتوني،معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون ودار النهار للنشر، بيروت، ٢٠١٢.

١١- محمد سعيد فرح ومصطفى خلف عبدالجواد، علم اجتماع الادب، دار امسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان-الاردن، ٢٠٠٩.

١٢- محمد القاضي واخرون، معجم السرديات، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، تونس وبيروت، ٢٠١٠

١٣- محمد محي الدين مينو، معجم النقد الادبي الحديث، دائرة الثقافة والاعلام- حكومة الشارقة، ٢٠١٢.

١٤- ميشيل زيرافا، الادب القصصي- الرواية والواقع الاجتماعي، ترجمة: سما داوود، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٥.

پوختە

ئەم رۆمانە باس لە کێشەو ئازارەکانی عیراق دەکات لە دوو زەمەنی جیاوازدا، زەمەنی دەوڵەتی عوسمانی و زەمەنی رووخانی بەغدا لەساڵی ٢٠٠٣، لە رێگەی کارەکتەری سەرەکیی رۆمانەکە کە (حەیات بابلی)یە، حەیات کەسێکی رۆشنبیرەو هەڵگری بیری چەپەو لە بواری رۆژنامەدا کار دەکات، بەڵام لەپاش شکستی بەغدا، ئەم ژنەو کەسوکاری و ژمارەیەکی زۆر لەژنانی هاوڕێی، دوچاری نەهامەتی و دەردەسەرییەکی بێئەندازە دەبن، هەروەها رووبەڕوی تاوانی قێزەون دەبنەوە بەدەست میلیشیاکان و چەکدارە ریشدرێژەکان و حزبە ئایینییەتوندڕەوەکان، حەیات هەموو ئەو نەهامەتییانە لە نۆ بەشی سەرەکیدا دەگێڕێتەوە کە بەسەر ٣٥ دیمەندا دابەش کراوە، هەر دیمەنێك ناونیشانێکی فەرعی لەخۆدەگرێت، جگە لەوەی لە بەشی یەکەمدا سێ ناونیشانی دەسپێك هەیە کە سێ دیمەنی گێڕانەوەکە لەخۆ دەگرێت، هەندێ لە رووداوەکان لەسەر زاری حەیات دەگێڕدرێنەوەو هەندێ رووداو و دیمەنی تر ژنە هاوڕێکانی دەیگێڕنەوە، سەرجەمی دیمەنەکان باس لە چیرۆکەکانی مەرگ و خۆشەویستی و ونبوون و لاقەکردن و رفاندن و سەربڕین و زمانبڕین دەکەن، لەتەك چەندین لایەنی لێکبوردن و پێکەوەژیانی نەتەوەکان و ئایینەکان لە چەند قۆناغێکی مێژوویيدا. رۆماننوس ئەو نەهامەتییانە لە دوو زەمەنی مێژوویی عیراقدادەگێڕێتەوە کە تا ئەندازەیەکی زۆر لەیەکدی دەچن، ئەم رۆمانە دەتوانێت گەواهییەکی ئەدەبیی گەورە بێت لەسەر مێژووی چەرمەسەرییە کۆن و نوێیەکانی عێراق.

Abtract

The novel recounts the tragic events of Iraq in two different eras in the history of the country: the Ottoman era, and the fall of Baghdad in 2003. The story is narrated by the female protagonist, Hayat Al-Babily (The Babylonian), whois an intellectual, liberal journalist. Following the fall of Baghdad, we learn that Hayat is not usedto the new atmosphere and, along with her family, relatives and female friends, isshocked and torn apart by crimes of killing, decapitation, rape and kidnap, committed by masked and beardedfightersofvarious armed groups and religious hardliners.

The book is in 9 chapters, which are divided into 35 scenes, each scene with a subtitle. Chapter 1 contains three introductory titles with three scenes. Some of the events are narrated by the main character Hayat, and some by other women. All the events are about love, death, loss, rape, kidnap, dismemberment, beheading and amputation of the limbs and tongue, in addition to stories of tolerance and coexistence of different religions, communities and cultures in differentperiods of Iraqi history.

This novel is considered as a literary testimony of the suffering of the Iraqi people in two identicalperiods of time. □